صندوق البريد

رواية « المهزومون » (١)

*

ايتها الزميلات ، ايها الزملاء

ترددت كثيرا قبل ان اكتب هذه المحاولة النقدية الاولى لرواية (المهزومون) : والا فما مكانها في النقد نفسه ان لم تستوف بديهية من بديهيات النقد وهو ان تكون الرواية قد قرئت من قبل اكثركم ، واذا كان ما سمعتم هو لمحة عن الرواية فاولى ان يكون هذا لمحة قصيرة عما يجب ان يكون عليه نقد هذه الرواية . ان انسب مجال لهذا النقد هو التعريف والتلميح وهو شفاعتي الوحيدة .

كان هاني يكاد يصدقني عندما قلت له :

ـ ان روايتك لن تنجح ..

كنت اعرف آنذاك ان هاني لا يزال يعاني من وهج التجربة : السعير الذي عاشه فترة من حياته . وكنت اعرف ايضا ان الكتابة عن تجربة من داخل السعير ، من لفح الوهج سيضفي طابعا شخصيا على القصة وينزل بها عن العلية المطلوبة . ولكن الخبر السار المفاجيء : فوز الرواية نفسها بجائزة الاداب اطاح بما في رأسي من بقايا نظريات نقدية علكتها طويلا في حياتي الدراسية .

في ليلة رأس السنة بينما كانت الساعة تحث الخطى نحو الثانية عشرة كنت مع (بشر) بطل الرواية في اخر صفحة من صفحاتها ينحدر في الترام من اعلى المهاجرين الى جسر فكتوريا وصوت الترام الذي ينخر الفؤاد ويعذب الحواس ينصب بصقيعية سائلة في قلب بشر ، كان منحدرا كالحياة نفسها والعبارة الوحيدة تتردد على طول الطريق :

ـ تيت تيت الترام ينحدر ، نزل اناس وصعد اخرون .

كان (بشر) ساعتها يودع ذلك الصقيع السائل ، ذلك الهدير الذي يعذب الحواس ، يودعها في انتحار شعوري الى الكلية العسكرية، وعندها تكامل عندي احساس مبهم راودني قبل اربع ساعات : وهو انني امام عمل فني لا يستهان به . ان الصدق الذي هزني والتعاطف الذي شعرت به تجاه الرواية كان بداية المشروع النقدي الذي اقراه عليكم الان ودافعي فقط هو التعريف والتلميح.

ان اول ما يقال عن الرواية انها من الداخل : من داخل بشر فقط . وهي تحقق اول شرط من شروط الواقعية وهو واقعية التكنيك اي تحديد وجهة النظر بشخص واحد ، كذلك ينطلق من داخل بشر ايضا كل ما فيها من شخصيات ورموز ودلالات وتنسفح على صفحاتها .

ان اول ما يطالعنا من شخصيات الرواية بعد بشر شخصيتان اثنتان هما صديقا بشر : صالح ودريد ، وجل ما يقال عن (صالح) كشخصية في الرواية هو البساطة في التفكير ، والبعد عن التعقيد وهو الذي لم يعان او لم يرد ان يعاني ازمة القيم على مستواها الوجودي البحت . انه الانسان المتاكد من الاشياء ، السريع التنفيذ ، الجماهيري الطبيعة .

وكان (دريد) الشخصية الثالثة بعد بشر وصالح هو الشخصية القلقة التي لم تتاكد من شيء يحس بالقيمة ولا يتاكد من وجوديتها انه النموذج الذي يحس كثيرا ويفكر كما يجب .

ولقد جمع (بشر) انسب مافي صالح ودريد . نراه خلال الرواية ينطلق من قيمه بعد ان تلقاها باي شكل حتى ولو كان التلقي رومانتيكيا ينطلق منها الى التحقيق السريع على المستوى الوجودي فيفشل امام المجتمع والتقاليد ويفشل اخيرا امام الحياة والقدر . لذا كان بشر ماساة في تكوينه كانسان وعملا فنيا طريفا كبطل لرواية .

كما ان استعراضا اوليا للشخصيات النسائية في الرواية يضعنا امام مشكلة اجتماعية صرفة ، مشكلة المراة والتحرر : مشكلة (سحاب) التي احبها بشر و (واحة)التي احبته و (ثريا) التي اشتهته . كل هذه تضعنا امام مشكلة التعقيد في الحياة الجنسية والعاطفية .التعقيد الذي حطم اول قيمة امن بها بشر امام تفاهة الحياة وجدبها . تلك القيمة هي الحب .

حبه لسحاب كان يمكن ان ينفصل عن مجاله الجوهري الى مجاله الوجودي لولا زواجها من مدير السكك الحديدية وكان السبب هو الفارق الاجتماعي ، وحب واحه لبشر كان يمكن ان يكون كالسابق لولا القدر الذي اذبلها والحب لايزال في تفتحه الاروع .

ان الصدق كما قلت هو المقياس الذي يصلح للانطلاقة النقديةوبمقدار الصدق يكون الالتحام التلقائي بين الشكل والموضوع ، ان بشر الذي يتكلم وهو لايزال على عتبات دور النقاهة ولا يزال يحس الوهج من بعيد لا لسعير التجربة فحسب بل لسعير الحياة باكملها : بشر نفسه وقربه من التجربة يحققان لنا صدقا اساسيا ، صدق الفنية ، صدق الرموز والدلالات .

ان نبأ هائلا من الرموز قد حوى كل الام الضياع والعبث . ان مجتمعنا نفسه مجتمع شبابنا يعيش في ذلك الصرح الفني الجبار : شبابنا الذي مج قيمه القديمة وانطلق يبحث عن الحقيقة في بلاد العبث ، صحا من نومه على تقاسيم التمزق والتشرد والفقدان تدوى اصداؤها في جنبات الحياة .

ان « القاضي بنتشين » في رواية هوثورن « البيت ذو الشقوق السبعة » كان لايدري حين داهمه الموت ان الساعة تسير والعقارب تخط القدر وترسم عبث الحياة ، وان « كونتين » في رواية فولكنر « الصخب والعنف » كان قادرا مع ذلك ان يسحق الساعة التي ارقت حياته ، لكن بشرا بطل روايتنا كان اضعف من ذلك ، اضعف بكثير من ان يوقف القطار الذي يود افتراسه بل كان اعجز من ان يقترب نحوه : ان الانسحاق قد كتب على بشر من قبل ان يعرف سحاب ومن قبل ان تتزوج سحاب من مدير السكك الحديدية . فالدلالة واضحة ورائعة : لم يكن باستطاعة بشر ان يستمع الى صوت القطار رمز الحياة الصناعية ولا ان يتزوج سحاب ويهزم مدير السكك الحديدية مدير القطار الذي يود افتراسه ، ان القطار يعيده الى الجدب والتفاهة واللاشيئية ويتمسك اذ يتمسك بحب سحاب ولكن سحاب تمر كما السحاب ، كما سحاب الصيف الذي لن يطوله ولو كان في ناطحات السحاب واذا طاله فهو فراغ ولهو بدون ماء ، بدون جدوى .

لقد تمسك بشر بتلك القيمة « الحب » الى الرمق الاخير عند واحه التي احبته من كل قلبها . واحه واي رمز للحب فيها : تنزرع في قلبه بعد فشله الاول كما تنزرع الواحة في قلب الصحراء . .لكن الاسطوانة تتكرر ويفشل للمرة الثانية اذ ينضب ماء الواحه وتستحيل الى صحراء عندما تموت واحه بمرض في كبدها-ويصحو بشر اخيرا ليجد نفسه امام التناقض خطيئة الطبيعة الاولى .

والحقيقة ان كلا من شخصية صالح ، دريد ، سحاب ، وواحه تصلح لان تكون بطلا كبشر تماما لولا كون بشر في هذه الرواية هو الشخصية المسيطرة التي تغطي بظلها كل من معها .

واذا رجعنا الى التجربة وصدقها نرجع معا الى كل ماجاء في عرض شخصية كبشر بطل اول انتاج لهاني نحكم اول مانحكم على الصدق في عرضها وتتجاذبنا في هذا المجال مسلمتان .

الاولى : ـ اتصال اول عمل فني لاي فنان بذاته بما في الذاتية من رومانسية التلقي وامتدادها لتنسفح على رومانسية العرض .

الثانية : ـ ان الاعمال الفنية العظيمة التي قراها الكاتب تخزن فيه

---

(١) القيت هذه الكلمة في حفلة تكريمية اقامها الصف الرابع الانكليزي من كلية الاداب بجامعة دمشق لزميلهم هاني الراهب صاحب رواية « المهزومون » الفائزة بجائزة مجلة الاداب للرواية .

طاقة من الواقعية الفنية الحقة ومن السبر الوجودي السليم لمشكلة الشخصية .

ان اثر الثقافة الواضح في بناء الرمز السامق في الرواية يؤيد المسلمة الثانية كما هو في رمز القطار لكن السير السليم لمشكلة الشخصية في نفس المسلمة يوصلنا الى المسلمة الاولى وهو اتصال العمل الفني بذاتية الفنان : ان بشرا هو الشخصية التي اراد هاني ان يكونها فصنعها وسبر من خلالها اغوارا وجودية معينة وهمس في اذاننا من خلالها شاعريته وتحسسه للحياة باكملها .

لقد اقترب بشر من ان يكون « سوبرمانا » جديدا اذ جمع متناقضين : الاحساس والتفكير العميقين كما في شخصية دريد والتاكد من الاشياء والتنفيذ السريع كما في شخصية صالح. ان هذه المبالغة وهذا التناقض واضح في كون بشر احد افراد الطبقة الوسطى او دونها وهذا الوضع الاجتماعي يحدد علاقات معينة لهذه الشخصية فهو لايطمح ابدا ان تزوره نساء في بيته كما حدث في القصة ، ولا ان يعيش في تحلل تام من كل قيمة فجاة وبدون سابق تصميم : كان على بشر ان يعيش تجربة الفقدان هذه قبل ان يصل الى مرحلة البحث عن قيم جديدة.

وبعد كل هذا تبقى « المهزومون » عملا فنيا جديرا بالانتباه وفلتة نادرة من طالب عانى الحياة ونقلها بفنية اخاذة رغم تبعات الدراسة الجامعية ، وانها لاجمل هدية تهدى الى عبقريات الفنانين العظام كجيمس وهوثورن وفولكنر ودستويفسكي ومحفوظ ، وانها لتقدمة افخر بها وانا اقدم لكم احد الذين كانوا اقرب الناس الى قلبي في فترة من فترات حياتي .

فشكرا لكم وتهانينا لهاني ..

احمد سليمان الطويل
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

* *

فدوى طوقان .. والادب النسائي

*

وجهت مجلة « روز اليوسف » المصرية في عددها الصادر في ٦ فبراير ١٩٦١ هذا السؤال الى عدد من نقاد الادب : « من هي الاديبة العربية التي تمثل الادب النسائي ، وتعبر عن احساس المراة العربية وانفعالاتها » ؟

ويهم « الاداب » ان تنقل الى قرائها رأي الاستاذ انور المعداوي ، كتحية مشتركة الى الاديبة العربية المبدعة .

*

قبل ان اجيب عن هذا السؤال ، اشعر ان هناك سؤالا اخر يطالبني بالجواب : ماهو مفهوم الادب النسائي اولا وما هي حقيقته ؟ اهو ذلك الادب الذي نطالعه لكل اديبة عربية ، وينتسب دائما الى عالم المراة ؟ خطأ شائع كثيرا مانقع فيه .. تماما كما نقول عن قصة قصيرة او طويلة : هذه قصة « مصرية » ، لمجرد ان صاحبها واحد من كتابنا المصريين !

قطعا ليست القصة « المصرية » هي التي تحمل توقيع كاتب من مصر ، وانما ـ لكي نكون صادقين في التسمية ـ هي التي تعبر عن وجود كاتب « يعيش » في مصر .. وقطعا ليس الادب النسائي هو الذي يحمل توقيع امراة ، وانما ـ لكي نكون مرة اخرى صادقين في التسمية ـ هو الذي يعبر عن وجود امراة .. وجودها النفسي والاجتماعي وهو مضمخ بعطر الانوثة !

الادب النسائي لايستمد مفهومه الحقيقي من تعبير المراة وهي انسانة مثقفة وعالمه ، وانما يستمد هذا المفهوم من تعبيرها وهي ام وزوجة وانسانة تحب .. او بمعنى اخر ، وهي انثى تعيش بكل مشاعرها في الحياة ، وتعيش بكل انوثتها في الفن . تريدون مثالا ؟ خذوا اذن هذا النموذج من شعر فدوى طوقان !

وفي غمرات الذهول العميق تطالعني القامة الفارعة
فأشخص ثم اغض حياء واكسر من لهفتي الجائعة
وابدي جمود الخلى كأن لم ترج دمي الطلعة الرائعة

هنا ، في هذا الشعر ، نشم رائحة عطر انثوي أخاذ. انه عطر امراة .. امراة نعرف على التاكيد انها « عربية » .. عربية بذهولها العميق الغامر في لحظة تحطم اسوار الجمود ، لانها لحظة لقاء .. وعربية بحيائها الاجتماعي الموروث في موقف يغلق نوافذ الخوف والتردد ، لانه موقف حب .. وكل هذا والدم فائر ، والشوق جائع ، والهوى ظمان !

كل فتاة عربية تعيش في اسر التقاليد كما تعيش فدوى طوقان ، لابد ان تتعرض لكل هذه المشاعر .... لفورة الدم ، وجوع الشوق ، وظمأ الروح . ولكن ادبنا النسائي يخاف أن يتكلم ، وعندما تكلمت فدوى ، عرفنا اطهر الاعمال الفنية في شعرنا الحديث !!

* *

تصويب

*

في قصيدة « الظل والصليب » لصلاح عبد الصبور ، التي نشرت في العدد الماضي من الآداب ، وقعت بعض الاخطاء المطبعية .

ففي اول الفقرة الثالثة :

ملاحنا ينتف شعر الذقن في جنون
يدعو اله **النغمة** المجنون ان يلين قلبه ، ولا يلين
ينشده ابناءه ، واهله **الادين**

وصحتها

ملاحنا ينتف شعر الذقن في جنون
يدعو اله النقمة المجنون ان يلين قلبه ، ولا يلين
ينشده ابناءه ، واهله الادنين

وفي نفس الفقرة

هذه اذن جبال الملح والقصدير
وافرحا .. نعيش في مشارف المحظور
نموت بعد ان نذوق لحظة الرعب المرير والتوقع المر
وبعد الاف الليالي من زماننا **الغرير**
مضت ثقيلات الخطى على عصا التدبر **البعيد**

وصحتها

هذي اذن جبال الملح والقصدير
وافرحا .. نعيش في مشارف المحظور
نموت بعد ان نذوق لحظة الرعب المرير والتوقع المرير
وبعد الاف الليالي من زماننا الضرير
مضت ثقيلات الخطى على عصا التدبر البصير

وفي ختام الفقرة

حين مضت **جبالنا** بجسمه الضئيل نحو القاع

وصحتها

حين مضت حبالنا بجسمه الضئيل نحو القاع